📚الجمع بين الحسنيين

قراءة في كتاب "بلوغ المرام"

وشرحه "فتح ذي الجلال والإكرام"

في سماء العلم الشرعي، تتلألأ نجومٌ لا يخبو ضوؤها، كتبٌ كتب الله لها القبول، فصارت مراجع للأمة جيلاً بعد جيل. ومن أعظم هذه الأسفار التي جمعت بين دقة الحديث واستنباط الفقه، كتاب **"بلوغ المرام من أدلة الأحكام** "للحافظ ابن حجر العسقلاني، والذي ازداد نوراً وبهاءً بالشرح الماتع للعلامة محمد بن صالح العثيمين في سفره **"فتح ذي الجلال والإكرام**."

في هذه المقالة، نبحر في رحلة معرفية لاستكشاف هذين الكتابين العظيمين، وأهميتهما لطالب العلم والمسلم المثقف.

🏛️أولاً: الأصل المتين.. "بلوغ المرام من أدلة الأحكام"

✍️المؤلف:

هو شيخ الإسلام، أمير المؤمنين في الحديث، **أحمد بن علي بن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢هـ). صاحب "فتح الباري"، العالم الذي انتهت إليه رياسة الحديث في عصره.

📖طبيعة الكتاب ومنهجه:

كتاب "بلوغ المرام" ليس مجرد كتاب حديثي سردي، بل هو كتاب **أحاديث الأحكام**.

١. **الانتقاء الدقيق** :جمع فيه المؤلف أصول الأحاديث التي استنبط منها الفقهاء الأحكام الشرعية (من الطهارة، الصلاة، الزكاة، وحتى الجنايات والجامع في الآداب).

٢. **الترتيب الفقهي** :رتبه على أبواب الفقه ليسهل على الفقيه والمتفقه الرجوع للدليل.

٣. **التحرير النقدي**: تميز ابن حجر بأنه لا يذكر الحديث فحسب، بل يبين درجته (صحيح، حسن، ضعيف) باختصار مذهل، ويعزو الحديث لمخرجه (البخاري، مسلم، أصحاب السنن).

🌟أهميته:

يُعد هذا الكتاب "عمدة" لمن أراد أن يجمع بين حفظ الحديث وفهم الفقه. قيل عنه: "*من حفظ بلوغ المرام فقد حاز أدلة الأحكام*." لذا، هو المقرر الأول في أغلب المعاهد والكليات الشرعية حول العالم.

🎙️ثانياً: الشرح الأمين.. "فتح ذي الجلال والإكرام"

👳الشارح:

هو فقيه العصر، ومربي الأجيال، العلامة **محمد بن صالح العثيمين** (ت ١٤٢١هـ). عُرف بأسلوبه السهل الممتنع، وقدرته الفائقة على تقعيد المسائل وتقريب العلم.

📘قصة الشرح:

هذا الكتاب في أصله **دروس صوتية** ألقاها الشيخ في الجامع الكبير بعنيزة، ثم قام طلاب العلم بتفريغها وعنايتها، وراجع الشيخ بعضها قبل وفاته، وخرجت في حلة قشيبة باسم "فتح ذي الجلال والإكرام."

💡منهج ابن عثيمين في الشرح:

يتميز شرح الشيخ ابن عثيمين بمنهجية فريدة تجعل الطالب يخرج بحصيلة علمية متينة، وتتلخص خطواته في شرح كل حديث كالتالي:

١. **التحليل اللغوي**: يبدأ بشرح مفردات الحديث شرحاً لغوياً يزيل الغموض.

٢. **المعنى الإجمالي**: يذكر المعنى العام للحديث ليربط أجزاءه ببعضها.

٣. **الفوائد والأحكام (بيت القصيد)**: وهنا تكمن عبقرية الشيخ؛ حيث يستنبط من الحديث الواحد عدة فوائد (فقهية، عقدية، تربوية، ولغوية)، مرقّمة ومرتبة.

٤. **الترجيح والمناقشة :**يعرض الخلاف بين العلماء بأدب جمّ، ثم يرجح ما يراه موافقاً للدليل، معللاً اختياره بقواعد أصولية متينة.

💎 لماذا يعتبر "فتح ذي الجلال والإكرام" كنزاً لا يستغنى عنه؟

عندما تقرأ في هذا الشرح، ستجد مميزات لا تكاد تجتمع في غيره:

- 🧩 **التقعيد الفقهي :**لا يكتفي الشيخ بذكر الحكم، بل يربطه بالقواعد الفقهية الكبرى (مثل: "الشك لا يزول باليقين"، "المشقة تجلب التيسير")، مما يبني الملكة الفقهية عند القارئ.
- ⚖️ **الإنصاف العلمي :**يتعامل الشيخ مع الأحاديث الضعيفة الموجودة في "بلوغ المرام" بمهنية؛ فيبين ضعفها، وهل يُعمل بها في فضائل الأعمال أم ترفض بالكلية.
- 🧠 **العقلية الأصولية :**يبرز في الشرح تمكن الشيخ من "أصول الفقه"، فتجده يطبق مفاهيم العام والخاص، والمطلق والمقيد ببراعة.
- 🖤 **الجانب التربوي :**لا يغفل الشيخ الجانب الإيماني، فكثيراً ما يربط الأحكام بخشية الله وتقواه، مما يجعل الفقه حياً في القلب لا مجرد نصوص جامدة.
- 🗣️ **سهولة العبارة :**بما أن أصله دروس شفهية، فإن لغته قريبة جداً من الأفهام، بعيدة عن التعقيد والغموض، تناسب المبتدئ ولا يستغني عنها المنتهي.

📑 مقارنة سريعة بين المتن والشرح

فتح ذي الجلال والإكرام (الشرح)	بلوغ المرام (الأصل)	وجه المقارنة

الهدف	سرد الأدلة النبوية للأحكام	تفكيك الأدلة واستخراج الأحكام منها
الأسلوب	اختصار شديد ودقة في العزو	إسهاب وتوضيح وشرح وتفصيل
الفائدة	الحفظ والاستدلال	الفهم والتدقيق والترجيح

🎯 الخاتمة: نصيحة لكل محب للعلم

إن اقتناء كتاب **"فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام "**ليس مجرد إضافة لمكتبتك، بل هو استثمار في عقلك ودينك. إنه يمنحك الفرصة لتجلس افتراضياً في حلقة الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- لتسمع منه كيف يُفهم كلام النبي ﷺ وكيف تُبنى الأحكام الشرعية.

✨ **نصيحة** :إذا كنت مبتدئاً، اقرأ الشرح بتأنٍ وركز على "الفوائد" المستنبطة. وإذا كنت طالب علم، فقارن ترجيحات الشيخ بترجيحات الشراح الآخرين (كالصنعاني في سبل السلام) لترتقي بملكتك الفقهية.

رحم الله الحافظ ابن حجر، ورحم الله العلامة ابن عثيمين، وجزاهما عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

🖋 تم إعداد هذا المقال ليكون دليلاً وافياً للقارئ الكريم.

🔍 ما وراء السطور: نظرة معمقة في "بلوغ المرام" وشرح "ابن عثيمين"

استكمالاً لما سبق، لا بد من تسليط الضوء على الخبايا العلمية والمنهجية التي جعلت من **"فتح ذي الجلال والإكرام "**مدرسة فقهية متكاملة، وليس مجرد شرح عابر. هنا نفصل في الهيكلية، المصطلحات، ومنهجية الترجيح.

🏛 أولاً: تفاصيل دقيقة حول المتن (بلوغ المرام)

كتاب الحافظ ابن حجر ليس مجرد تجميع، بل هو "صناعة حديثية" متقنة. إليك تفاصيل قد تغيب عن الكثيرين:

1. هندسة الكتاب وتقسيمه:

- **عدد الأحاديث:** يحتوي الكتاب على ما يقارب **1568 حديثاً** (يختلف الرقم قليلاً باختلاف الطبعات والترقيم.)
- **التسلسل الموضوعي:** بدأ بـ *كتاب الطهارة* (لأنها مفتاح الصلاة)، ثم *الصلاة*، فبقية العبادات، ثم المعاملات، فالنكاح، فالجنايات، وانتهى بـ *كتاب الجامع*.
- **"كتاب الجامع" - الدرة الفريدة:** ختم ابن حجر كتابه بباب فريد أسماه "الجامع"، جمع فيه أحاديث الآداب، والزهد، والورع، ومكارم الأخلاق، والذكر، والدعاء. وهذا تميز به عن غيره من كتب الأحكام، ليرسل رسالة مفادها: *أن الفقه لا ينفصل عن الأخلاق والسلوك*.

2. شفرات ومصطلحات ابن حجر (المفاتيح):

لكي تفهم "بلوغ المرام"، يجب أن تعرف مصطلحات المؤلف الدقيقة التي شرحها ابن عثيمين ببراعة:

- **"متفق عليه":** يقصد به رواه البخاري ومسلم.
- **"رواه الثلاثة":** يقصد أصحاب السنن (أبو داود، والترمذي، والنسائي) دون ابن ماجه.
- **"رواه الأربعة":** أصحاب السنن الثلاثة + ابن ماجه.
- **"الخمسة":** الأربعة + الإمام أحمد.
- **"السبعة":** الخمسة + البخاري ومسلم.
هذه الدقة في العزو توفر على الطالب وقتاً طويلاً في التخريج.

💡ثانياً: الغوص في "فتح ذي الجلال والإكرام" (منهجية ابن عثيمين)

شرح الشيخ ابن عثيمين يُعتبر **"دورة تدريبية في صناعة الفقيه."** إليك كيف يفعل ذلك بالتفصيل:

.1الاستقلال الفقهي (التحرر من التمذهب الأعمى):

رغم أن الشيخ ابن عثيمين (حنبي) المذهب في الأساس، إلا أنه في هذا الشرح يظهر كفقيه مجتهد يدور مع الدليل.

- **المثال :**في مسائل كثيرة، قد يقول" :*والمذهب كذا وكذا، ولكن الصحيح هو كذا لحديث كذا* ."
- **القيمة :**يعلم الطالب أن الحق في الدليل وليس في الرجال، مع الحفاظ على احترام الأئمة الأربعة.

.2الربط بالواقع المعاصر (تنزيل الأحكام):

لا يشرح الشيخ الحديث كأنه في القرن الهجري الأول فحسب، بل يربطه بمستجدات العصر.

- عند حديث عن المعاملات والربا، تجده يتطرق للمعاملات البنكية الحديثة.
- عند حديث الأطعمة، يتحدث عن المأكولات المستوردة والمواد الحافظة إن لزم الأمر في سياق القياس.

.3العناية باللغة والنحو:

ابن عثيمين عالم لغوي من الطراز الرفيع. في شرحه:

- يعرب الكلمات المشكلة في الحديث.
- يبيّن كيف يختلف الحكم الشرعي باختلاف الحركة الإعرابية.
- مثال: شرحه لحديث "*ذكاةُ الجنينِ ذكاةُ أمِّه* "(بضم التاء أو فتحها)، وكيف يقلب ذلك المعنى الفقهي رأساً على عقب.

.4أسلوب "التقسيم والسبر:"

عقلية الشيخ عقلية هندسية مرتبة، لذا تجده يستخدم عبارات مثل:

- "*وهذا الأمر ينقسم إلى ثلاثة أقسام*"...
- "*وللعلماء في هذه المسألة قولان، أرجحهما*"...

هذا الأسلوب يرسخ المعلومة في ذهن الطالب ويمنع تشتت الأفكار.

📚 ثالثاً: رحلة الكتاب من "الشرائط" إلى "المجلدات"

من المهم معرفة تاريخ الكتاب لتقدير قيمته:

١. **الأصل الصوتي :**كان شرحاً صوتياً ألقاه الشيخ في دروسه المسجدية على مدار سنوات.

٢. **الكتابة الأولى :**فرغه الطلاب وتداولوه في مذكرات.

٣. **طبعة "مدار الوطن :"**تُعتبر من أفضل الطبعات وأكثرها خدمة للكتاب، حيث تقع في **6مجلدات ضخمة** (أو ١٥ جزءاً في بعض الطبعات المفصلة). تم فيها تخريج الأحاديث بدقة، ومراجعة النص لغوياً، ووضع عناوين جانبية للفوائد.

⚖️ رابعاً: مقارنة مع أشهر شروح بلوغ المرام

فتح ذي الجلال والإكرام (لابن عثيمين)	سبل السلام (للصنعاني)	الميزة
فقهي، أصولي، عقلي، تعليمي	لغوي، حديثي، نقلي عن السابقين	**التركيز**
سهولة المعاصرين، مفصل، حواري	جزالة القدماء، مكثف	**الأسلوب**
للمبتدئ والمتوسط والمنتهي	للمنتهي في طلب العلم	**المناسبة**
سلفية صافية (على منهج أهل السنة)	قد تجد بعض التأويلات (حيث تأثر بالمدرسة الزيدية سابقاً)	**العقيدة**

📝خامساً: نموذج تطبيقي (كيف تقرأ الكتاب؟)

لنأخذ مثالاً تخيلياً لكيفية عرض الشيخ لمسألة في الكتاب، لتتضح الصورة:

- **الحديث**" :*الماء طهور لا ينجسه شيء*) "حديث بئر بضاعة.(
- **الشرح اللغوي** :يشرح معنى "بئر بضاعة" وموقعها في المدينة.
- **المسألة الفقهية** :هل الماء يتنجس بمجرد الملاقات أم بالتغير؟
- **عرض الخلاف** :يذكر رأي من قال بالتنجس بمجرد الملاقاة (وهو قول في المذهب)، ورأي شيخ الإسلام ابن تيمية (التنجس بالتغير).
- **الترجيح** :ينصر الشيخ رأي ابن تيمية بالأدلة العقلية والنقلية، ويرد على المخالفين بأدب.
- **الفوائد التربوية** :يتحدث عن سعة الشريعة وتيسيرها على العباد في أمر الطهارة.

✨الخلاصة الماسية

كتاب **"فتح ذي الجلال والإكرام "**هو مشروع عمر للشيخ ابن عثيمين، وهو جسر يربط بين نصوص الوحي وبين التطبيق العملي في حياتنا اليومية.
إنه ليس مجرد كتاب تقرؤه وتضعه على الرف، بل هو **مرجع استشاري** تعود إليه كلما أردت فهم حكم شرعي بدليله، أو أردت أن تتدرب على كيفية التفكير الفقهي السليم.

📖 **نصيحة أخيرة** :إذا عزمت على قراءته، فابدأ بـ "كتاب الجامع" (في آخر المجلدات) لترقيق القلب وتهذيب النفس، ثم ابدأ من "كتاب الطهارة" لتأسيس الفقه.